هوية اللغة العربية ولغة الهوية العربية

Identity of the Arabic language and
the language of the Arab identity

د. حسن بدوح، جامعة الحسن الأول، سطات، المغرب

ملخّـص

إن معرفة اللغة وتحصينها يعدان الركيزة الأساس لصياغة هوية الأمة و تحصينها .

ينطلق هذا المقال من جدلية العلاقة بتن اللغة والهوية؛ فاللغة تتأثر بالظروف التي أنتجتها، ومعرفة هذه الظروف سيساعدنا على فهم الخلفيات التاريخية لهويتها.

اللغة هي الأساس الصلب الذي تقوم عليه قصة الأمة فإذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح سجنها ما احتفظت بلغتها.

الكلمات المفاتيح:

ـ اللغة ـ الهوية ـ لغة الهوية ـ هوية اللغة.

Abstract

Knowing the language and armor themselves as the main pillar to develop and protect the identity of the community. This article takes his departure from the dialectical relationship between language and identity.

Language is influenced by the circumstances that produced it, and know the circumstances will help us understand the historical foundations of his identity.

Language and solid foundation on which is based the history of the community, if it is controlled, it hands the key to her prison until she has preserved its language.

مقدّمـــــة:

الشعر ديوان العـــــرب، قولة مأثورة تفيد أن الشعـــــر هو سجل لتاريخ الأمة، وقيمها، وتقاليدها، وأمجادها... ولا شك أن وسيلتهم في ذلك هي اللغة .

إن حاجتنا إلى اللغة مستمرة؛ فنحن لا نستطيع أن نتصور العالم في كل تجلياته إلا في حدود اللغة، فلا شيء واضح قبل ظهور اللغة التي هي بمثابة المصفاة التي من خلالها نحكم ونصنف ونعبر ونقمع...[2]

إن العالم يتسلل إلى اللغة باعتباره سلسلة من المفاهيم والصور، والمفاهيم هي التي تمكننا من تنظيم العالم من خلال التقطيع والمفصلة: أسود وأبيض، ذكر وأنثى، أعلى وأسفل....

1 -**تعريف الهوية:**

قال الميداني في تمييزه بين الماهية والهوية» الماهية هي حقيقة الكلي، أي: ما كان من عناصر الكلي مقوما لذاته، بمعنى أنه لولاه لارتفعت حقيقته أو تغيرت. ولمّا كانت الماهية حقيقة الكلي، كانت قابلة للشركة. والهوية: هي حقيقة الجزئي، أي : ما كان من عناصر الجزئي مقّوما لذاته، بمعنى أنه لولاه لارتفعت حقيقته أو تغيرت. ولما كانت الهوية حقيقة الجزئي، كان تمايز الأشخاص في الوجود الخارجي بهوياتها.[3]

وجاء في المعجم الفلسفي:» وهوية الشيء وعينيته ووحدته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد كل واحد(فارابي ـ تعليقات)»[4]

2 - **هوية اللغة العربية:**

مما لا شك فيه أن تاريخ الأمة العربية والإسلامية غني في أبعاده: الحضارية، والثقافية، والسياسية... وليس قصدنا هنا استعراض مناقب هذه الهوية التي أفادت البشرية بدون شك، ولكننا أحببنا أن نتوقف عند بعض المسائل التي تطرح إشكالات في الساحة العربية في وقتنا الراهن مثل: صورة المرأة والرجل في الثقافة العربية من خلال اللغة العربية، وأهمية اللغة العربية العلمية والاقتصادية والسياسية.... وبطبيعة الحال فلن نتطرق بتفصيل لكل هذه الإشكالات وإنما سنركز هنا على صورة المرأة في الثقافة العربية من خلال موروثنا اللغوي والنحوي، وإن كنا سنشير في بعض الأحيان إلى جانب من الجوانب التي لها ارتباط بالإشكاليات الأخرى لأن طبيعة الموضوع (جدلية العلاقة بين اللغة والهوية) من التعقيد والتركيب بما كان. وسنخصص، مستقبلا، بحوثا تتناول التمظهرات السياسية والنفسية و الاقتصادية التي يمكن استنطاقها من اللغة العربية. عرف ابن جني اللغة بأنها» أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[5] وفي

هذا التعريف إشارة إلى أمرين هما: هوية اللغة الذاتية عندما قال: أصوات، وهويتها الوظيفية عندما قال: يعبر بها كلها كل قوم عن أغراضهم. فالتعبير عن الفكر متعذر خارج حدود اللغة. وكما أنه لا تفكير بدون لغة، فلا لغة بدون تفكير أي بدون محتوى. وبالتالي فإن قوة الإنسان لا تتجلى فقط في امتلاكه للغة، بل في قدرته على استعمالها عن وعي. واللغة توجد حيث يوجد العالم، بتعبير هيدجر[6] ، والعالم هو مجموع أجزاء الكون[7] حيث يوجد التاريخ، وحيث توجد اللغة يوجد التاريخ ، وحيث تكون اللغة تكون المشاركة في الشعور المشترك بالموقف بين الناس، والمشاركة في فهم الوجود مع الغير.[8]

وبالعودة إلى تعريف ابن جني يظهر جليا أن اللغة تؤدي دور التعبير والتواصل والتشارك بين الأقوام والأمم. والتواصل في مبدئه يفيد الانتقال من الفردي إلى الجماعي، وهو بذلك شرط أساس لكل حياة اجتماعية، يكتسب من خلالها الفرد معارفه وينمي رؤيته للعالم. وإشارة ابن جني، في التعريف، إلى « قوم» يجعل كل لغة حاملة لهويات مختلفة: قومية، وإثنية، ودينية... مما يجعل اللغة تتجاوز في ماهيتها تأدية التواصل والتفاهم بين الناس.

إن اللغة بهذا المعنى أساس التواصل و الثقافة البشرية، بل إن معنى كل السلوكات الإنسانية لا يتحدد إلا عن طريق التسنين الثقافي. والتواصل بشكل عام، واللغوي بشكل خاص، هو السيرورة المركزية المكونة لكل ثقافة. وبالتالي فاللغة سيرورة، ودينامية تثير علاقة ذات طبيعة وجدانية، وانفعالية، واجتماعية بين أفراد المجتمع. وقد تحدث السيوطي عن سبب وجود اللغة وربطه بحاجة الإنسان إليها بعد تمكنه من العيش في جماعة بشرية أي التمدن. ولذلك وضع اللغة لتسمية الأشياء . يقول السيوطي: «وقيل إن الإنسان هو المتمدن بالطبع، والتوحش دأب السباع ، وبهذا المعنى توزعت الصنائع وانقسمت الحرف على الخلق، فكل واحد قصر وقته على حرفة، يشتغل بها لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محل حاجته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه، فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها، وإن كانت غائبة فلابد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه، فوضعوا الكلام دلالة ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد.»[9]

اللغة الشفهية أسبق من المكتوبة، فالإنسان تكلم قبل أن يكتب، ولا يزال كل منا يكتسب لغة مجتمعه، ويتعلمها كلاما ونطقا قبل أن يمارسها كتابة وتدوينا. ولا يخفى عن أحد قيمة اللغة الشفهية التي تعد جانبا أساسا من جوانب التفاعل الاجتماعي اليومي، إذ تمكننا من اكتشاف الخبرات المشتركة بين أفراد المجتمع ودراستها، كما يساعدنا أيضا على دراسة طرقهم ومناهجهم التواصلية في الحياة اليومية، وما تشير إليه

من خصائص عقلانية وأخلاقية تمكنهم من تحقيق تواصل تفاعلي فيما بينهم.

وللغة ذاكرة تستمدها من ذاكرة المعيش والأحداث التي لها علاقة مباشرة باللغة كالأمثال والنتاج الثقافي والطقوس الاجتماعية... كما أن للغة بنية تستمدها من بنية المجتمع من حيث تقاليده وأعرافه والمحيط...

من الأمور التي يمكن أن تبين لنا علاقة البنية اللغوية بالبنية الثقافية، ما يسمى في نظرية الجندر: ذكورية اللغة. واالعربية العربية ليست استثناء ، ففيها تجليات الذكورية التي تعود في أساسها إلى ذكورية الثقافة العربية المرتبطة بهيمنة النظام الأبوي البطريكي، حيث اعتماد الطبقة والعرق واللون والجنس(ذكر/ انثى) والسن، والصحة، ومعايير إصدار تحيزات وأحكام مسبقة على الناس الذين تنطبق عليهم هذه المعايير.[10]

قديما كان يقال: تكلم حتى أراك، ومعنى هذا أن اللغة تفضح كل ما نحاول إخفاءه، عن وعي أو عن غير وعي، عن الآخر. فيمكن ملاحظة ذكورية ثقافة المجتمعات العربية، من خلال استنطاق اللغة العربية الحاملة لهذه الثقافة. أي أن نرى ثقافتنا من خلال مرآة اللغة.

فمذهب النسوية (feminism) يرى أن التحيز الذكوري(وهو تحيز ثقافي اجتماعي تاريخي) يمكن أن يتمركز في اللغة أيضا؛ حيث تتجلى، من خلال اللغة، النظرة الدونية لجنس النساء مقابل نظرة الاستعلاء للذكر[11]. وقد حاولت بعض المقررات المدرسية، تجاوز مثل هذه النظرة، وإن كان ذلك بشكل محتشم ، من خلال استعمال اللغة بالإشارة إلى الجنسين معا في الكتب المدرسية مثل:
أجب / أجيبي -كتاب التلميذ (ة) - لاحظ (ي)، أو استعمال عبارات محايدة مثل: ألاحظ، أعبر، المطلوب رسم جدول ...

فقد تأثرت اللغة بالتقسيم الاجتماعي للأدوار المذكرة والمؤنثة، وبالخصائص الشخصية لكل منهما حتى أصبحت علامات لحقيقة اجتماعية أو سيكولوجية بالنسبة لأفراد المجتمع. ومن خلال هذه الإيديولوجية(إيديولوجية التمييز) تتشكل الإيديولوجية اللغوية التي تضمن استمرار المعتقدات الثقافية المؤسسة للهوية اللغوية العربية.

وبدراستنا للغة نستطيع فهم الأبعاد الاجتماعية والسيميولوجية لها، كما يمكننا الكشف عن الإيديولوجيات الضمنية التي تنظم استعمال اللغة داخل المجتمع وفق تصور معين، فحيثما تحضر اللغة تحضر البنية الإيديولوجية.

فبعض اللغات، مثل اللغة العربية، تميز بين وحداتها اللغوية كالأسماء والصفات والضمائر من حيث الجنس(مذكر / مؤنث)، وقد تكون هذه الوحدة اللغوية

مشتركة بين الجنسين كأداة التعريف مثلا والغريب هنا أن أبا حيان التوحيدي ، في الإمتاع والمؤانسة، استطاع أن يستخلص أفضلية الذكر على الأنثى من التعريف:» وجرى حديث الذكور والإناث، فقال الوزير، قد شرف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله عز وجل: « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور « . فقلت: في هذا نظر؛ فقال: ما هو: قلت قدم الإناث - كما قلت - ولكن نكر، وأخر الذكور ولكن عرف، والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم. ثم قال: هذا حسن. قلت: ولم يترك هذا أيضاً حتى قال: « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً « فجمع الجنسين بالتنكير مع تقديم الذكران، فقال: هذا مستوفى.»[12]

وهذا التصنيف هو ما يمنح اللغة سلطة يقول رولان بارت» اللغة سلطة تشريعية، اللسان قانونها. إننا لا نلحظ السلطة التي ينطوي عليها اللسان، لأننا ننسى أن كل لسان تصنيف، وأن كل تصنيف ينطوي على نوع من القهر والتوزيع والإرغام. هذا ما أوضحه ياكوبسون بقوله:» إن كل لهجة تتعين ، أكثر ما تتعين، لا بما تخول قوله بل بما ترغم على قوله. وفي اللغة الفرنسية أنا مرغم أن أضع نفسي كفاعل قبل أن أعبر عن الفعل الذي لن يكون إلا صفة تحمل علي؛ ... وعلى نحو مماثل أنا مرغم دوما على الاختيار بين صيغة التذكير والتأنيث، وليس بإمكاني على الإطلاق أن أحيد عنهما معا أو أجمع بينهما. ثم إنني مرغم على تحديد علاقتي بالآخر، إما باستعمال ضمير المخاطب بصيغة المفرد أنت أو بصيغة الجمع أنتم؛ وليس بإمكاني أن أترك المجال لمبادرة العاطفة والمجتمع. وهكذا فإن اللغة، بطبيعة بنيتها، تنطوي على علاقة استلاب قاهرة. ليس النطق، أو الخطاب بالأحرى، تبليغا كما يقال عادة: إنه إخضاع: فاللغة توجيه وإخضاع معممان. .. في اللغة إذن خضوع وسلطة يمتزجان بلا هوادة. فإذا لم تكن الحرية مجرد القدرة على الانفلات من قهر السلطة، وإنما، على الخصوص، عدم إخضاع أي كائن فلا مكان للحرية إلا خارج اللغة. بيد أن اللغة البشرية ، من سوء الحظ لا خارج لها: إنها انغلاق، ولا محيد لنا عنها إلا عن طريق المستحيل»[13]. ومعنى هذا أن الاكراهات التي تثقل كاهل اللغة ليس إكراهات لسانية فقط ، وإنما هناك إكراهات أخرى اجتماعية وإيديولوجية بتعبير روبول[14] Reoul وتتجلى هذه الإيديولوجية بعدة أشكال من بينها طريقة التعامل بين الأشخاص، ونموذجه هنا تعامل الرجل مع المرأة.

وغالبا ما يأخذ هذا التمييز أبعادا قيمية، مستمدة من البنية الثقافية والحضارية التي نشأت في أحضانها اللغة، وخاصة في مسألة التمييز بين الذكر والأنثى. ولذلك يؤكد بعض الباحثين في العلاقة بين اللغة والثقافة، على ضرورة التمييز بين الجنس(sex) والجندر[15] (Gender): حيث إن الجندر ثقافي والجنس بيولوجي، ومن خلال هذا التمييز تم رفض المعايير الثقافية للتمييز بين الذكر والأنثى على أساس أن الفروق الثقافية بينها طبيعية ومحكومة بالفروق البيولوجية.[16]

لقد انطلق سوسير في الدراسات اللسانية من اللغة(اللسان) باعتبارها واقعة اجتماعية، أي تمثل جماعي أو نمط من الفعل والفكر والإحساس. وهي في نظره تملك سلطة على الأفراد لأنها توجد خارجهم. وقد أخذ سوسير فكرة أن اللغة واقعة اجتماعية من علم الاجتماع الدوركايمي؛ فقد حدد دوركايم موضوع علم الاجتماع في الواقعة الاجتماعية كمعطى مبني وليست موضوعا بل علاقة بين الموضوعات، والمعطى يفرض مجموعة من الأدوات لدراسته . فاللغة مثلا معطى صوتي وصرفي وتركيبي ودلالي وتداولي. والمعطى يبنى من قبل الدارسين والمحللين الذين يقومون ببناء الظاهرة.

وتتميز الواقعة الاجتماعية حسب دوركايم بـ:

- هي تمثل.
- تمثل اجتماعي.
- توجد خارج الفرد.
- تفرض قوانينها وسلطتها على الفرد.

وقد ميز دوركايم بين التمثلات الفردية والتمثلات الجماعية، ودعى إلى إقصاء التمثلات الفردية لتأسيس علم الاجتماع.

وهذه المميزات نفسها هي التي حددها سوسير للظاهرة اللغوية التي تتميز عن الكلام. فقد حدد اللغة كموضع للسانيات وأقصى الكلام، لأن اللغة عنده تمثل، وهذا التمثل جماعي وليس فرديا، كما أنها توجد خارج الفرد ، وتفرض سلطتها عليه لأن الفرد لا يستشار في لسانه ولكنه عندما يفكر فإنه يفكر من خلال لغة نابعة من ثقافة.

تحمل اللغة في طياتها الصراعات الاجتماعية وهي أداة للتمييز بين السيد والعبد وبين المرأة والرجل، والمثقف والأمي... إنها أداة من أدوات الصراع الطبقي في المجتمع. يقول سابير» ... فليس من المبالغ فيه القول: إن إحدى الوظائف المهمة جدا للغة، هي إعلانها باستمرار للمجتمع عن المكان السيكولوجي الذي يشغله كل أعضائه فيه.»[17]

وكأننا هنا نتحدث عن وظيفة متميزة من وظائف اللغة اسمها» الهوية» فمن خلال اللغة يمكن أن نتعرف على المتكلم من حيث أصوله الجغرافية والاجتماعية و المستوى الثقافة وإثنيته وطرق التفكير... نتعرف على المتكلم من هو؟

ومن الأمثلة التي يمكن أن تبين لنا الأمر ما يعرف بالجندر (gender)؛ فالتمييز بين المذكر والمؤنث في المعاجم العربية قائم على ثنائية ضدية هي ثنائية (القوة والشدة/ والضعف)؛ حيث تمنح لكلمة «ذكر» معاني الشدة والقوة والكمال: يوم مذكر بمعنى شديد وصعب، وطريق مذكر بمعنى صعب، ورجل مذكر بمعنى شهم وأرض ذكر بمعنى غير

منبتة، وشعر ذكر: بمعنى فحل، وامرأة ذكر بمعنى قوية ويعتمد عليها وشبيهة بالذكور... أما كلمة «مؤنث» فمنحت معنى الضعف والليونة: تأنث الرجل : تحنث ولان وضعف، أرض أنيثة ومئناث بمعنى سهلة وليست بغليظة، وسيف أنيث بمعنى ليس قاطعا...

كما نجد هذا التمييز والتفاضل في النحو العربي بشكل ملفت للنظر؛ فقد ورد في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك « أصل الاسم أم يكون مذكرا، والتأنيث فرع عن التذكير، ولكون التذكير هو الأصل استغنى المذكر عن علامة تدل على التذكير، ولكون التأنيث فرعا عن التذكير، افتقر إلى علامة تدل عليه، وهي: التاء، والألف المقصورة، أو الممدودة.»[18]

بل إن المبرد يقول : « وكل ما لا يعرف أمذكر هو أم مؤنث، فحقه أن يكون مذكرا؛ لأن التأنيث لغير الحيوانات إنما هو تأنيث بعلامة، فإذا لم تكن العلامة، فالتذكير الأصل»[19] وإذا وجد جنسان مختلفان فالغلبة دائما للذكر على الأنثى يقول سيبويه:» وتقول هذا إحدى عشر إذا كن عشر نسوة معهن رجل، لأن المذكر يغلب المؤنث. ومثل ذلك قولك: خامس خمسة إذا كن أربع نسوة فيهن رجل، كأنك قلت: هو تمام خمسة. »[20]

وهنا يبدو أن اللغة العربية والنحو العربي يميلان إلى إبراز تفوق الذكر على الأنثى. حتى « أن الجنس النحوي يملك قيمة خاصة به تقتضي تراتبية تتأصل بمرور الوقت وتدخل في علاقة تماثل مع التراتبية الجنسية للعالم الواقعي.... ومعنى هذا أن اللغة تنقل إلى الإنسان نسقا جاهزا من القيم يوحي إليه ببعض التصنيفات التي لعله لم يكن لينشئها لو أنه لم يعرف هذا النسق . وتتأكد سلطة اللغة هذه بمجرد ما نسائل مؤلفي المعاجم.»[21]

وحتى في القواميس التي تترجم من اللغة الأجنبية إلى العربية فإنها تركز على الذكر دون الأنثى بل قد تترجم كلمة خاصة بالإناث أو فيما يصعب على المذكر فعله، بلفظ للذكور مثل: أرضع كترجمة لـ: to breastfeed وsuckle و [22] nurse.

وقد عبرت روبين لاكوف Robin Lakoff عن ذلك بقولها» إن اللغات، في بنائها واستعمالها، ترسم للنساء وظيفة اجتماعية متواضعة وتلزمهن بأن يرتبطن بها.»[23]

والمنطق المتحكم في هذا التمييز اللغوي القيمي مستمد من المؤسسة الاجتماعية المنتجة للغة. وتعمل اللغة على تمثل هذا التمييز وترمز إليه. بل إن هذه الخصائص اللغوية ذات الأبعاد القيمية تجد لها سندا في المقام الذي يحتله كل من الرجل والمرأة في الواقع المعيش في العالم العربي. وهو مقام له جذور في التاريخ؛ حيث كانت المرأة العربية تباع وتشترى...وغيره من الأفعال التي حرمت بمجيء الإسلام، ولكن الواقع العربي لايزال

يحتفظ بتلك النظرة الدونية للمرأة . ومن تجليات تلك النظرة أن الإنسان العربي يستقبل المولود الذكري بطريقة مخالفة لاستقباله للمولد إذا كان أنثى. كما يمكن أن نشير أيضا إلى النسب المخجلة للطلاق في العالم العربي بسبب كون المواليد إناث؛ حيث يتصور الرجل العربي أن ولادة الإناث دون الذكور فيه انتقاص من قيمة الرجل، كما يعتقد أن السبب في ذلك عائد للمرأة، والأمر نفسه يقال في حالة العقم حيث يغيب المولود أو تأخر قدومه؛ إذ قد يكون السبب مرتبطا بالرجل أو بالمرأة ، ولكن الثقافة السائدة مثلا أن العقم يصيب المرأة دون الرجل. وكذلك مسألة كيد المرأة... وكلها تفسيرات غير علمية بل تعود إلى النظرة الدونية للمرأة في الثقافة العربية. ولذلك نجد الرجل يسارع إلى الزواج بامرأة أخرى بحثا عن الذكر وقد لا ينتهي مشوار البحث هذا بالإضافة إلى تجليات أخرى يضيق المقام لذكرها مرتبطة بأوضاع المرأة على مستويات: السياسة والتعليم والشغل...

هكذا تتشكل هوية اللغة العربية انطلاقا من مخزون الذاكرة العربية، التي تتشكل بدورها من خلال الثقافة العربية. وهكذا تتكشف الظواهر الإنسانية من خلال ظاهرة اللغة؛ حيث تتفاعل اللغة العربية بالحضارة العربية. ومعنى هذا أن معرفة هوية اللغة العربية مرتبطة بوضعها في مقامها التداولي.

فباستنطاق اللغة، يمكننا دراسة تاريخ الفكر البشري؛ لأن اختلاف اللغة هو في حد ذاته اختلاف تصور الوجود أيضا. وهكذا، فاللغة هي أداة تمثُّل أو تمثيل Représen-tation الوجود في أذهاننا من خلال تصنيف المسميات باستخدام الكلمات التي توفرها لنا لغتنا(24). ومعنى هذا أننا حينما نتكلم اللغة فإن المجتمع هو الذي يتكلم.

3 - لغة الهوية:

لا يكتمل مدلول الهوية إلا في جوهر اللغة[25]. واللغة العربية هي عنوان الأمة العربية ورمز سلطتها الرمزية التي تكتسبها من خلال استعمالها في ممارسة الشعائر الدينية، و التدريس وتحرير الوثائق الرسمية... لأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية كما تنص على ذلك دساتير الدول العربية. وقد اعتبر بيير بورديو أن اللغة رأسمال رمزي، وامتياز وعنوان سيادة ومادامت هي أداة للمعرفة والتواصل والوجود، فهي تمارس سلطتها كبنية تقيم نظاما معرفيا بالواقع.[26]

لقد عاشت اللغة العربية في صراع من أجل البقاء في محطات تاريخية مختلفة. انتصرت في بعضها(ظاهرة النحل والشعوبية)، وخسرت في بعضها(العصبية التركية وحلول الخط اللاتيني محل الخط العربي) . واليوم تعيش اللغة العربية صراعا مع اللغة الأجنبية(الفرنسية والإنجليزية) ضمن ما يسميه بيير بورديو بـ« السوق اللغوية»، بل لقد فقدت مكانتها لصالح هذه اللغة أو تلك بعدما ارتبطت سلطة اللغة بسلطة الاقتصاد

وسوق الشغل والرقي الاجتماعي. و وأصبحت العلوم الدقيقة والعلوم التطبيقية تدرس في جامعاتنا بغير اللغة العربية. وهنا مكمن الخطورة لأن الهيمنة اللغوية تتحقق بالسيطرة على مجالات البحث العلمي ومخرجاته مما يكرس التبعية للغة السائدة. وقد ذكر المرحوم المهدي المنجرة في إحدى محاضراته أنه ليس هناك أمة تطورت بغير لغتها وقدم مثالا باليابان.

وللأسف فقد أخد البعض يروج لأفكار هدامة تميز بين لغة العلم والمعرفة ولغة عاجزة على أن تكون كذلك ، رغم أن الحقيقة التي لا يمكن أن يشك فيها أحد هي أن قوة اللغة أو ضعفها مرتبطان بقوة أو ضعف أهلها يقول ابن حزم:« وقد قال قوم: إن اليونانية أبسط اللغات، ولعل هذا إنما هو الآن فإن اللغة يسقط أكثرها. ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها، ونشاط أهلها وفراغهم. وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر ، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم، هذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة .»[27] وقال ابن خلون، في السياق نفسه، في المقدمة:« إعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم والدين والحلة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال إنها خب أي مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لسانا حضريا في جميع أمصار الإسلام وأيضا فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها الهالكين في ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل

الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وسار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلا بالأمصار فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس بالمغرب لبقاء الدين طلبا لها فانخفضت ببعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب»[28] لقد نقلنا قولة ابن خلدون رغم طولها لأنها تصور بدقة علاقة اللغة بالسلطة؛ حيث إن السيطرة تكون باللغة أولا إذ ينبهر المغلوب بلغة الغالب وثقافته وبذلك يتحقق التسلط للغة وثقافة الدولة الغالبة.

عندما لا نستفيد من التاريخ فإننا نكرره فقط، فلابد أن نستفيد من تاريخنا بأن نحوله إلى درس يهدف إلى صناعة العقول الحرة، لا أن نتخذه درسا وقورا يصنع العبيد.

ولذلك فاللغة التي نرتضيها للهوية العربية، ينبغي بناؤها من قبل «أنا» تتنازل عن مفهوم السيادة المطلقة وتنزل من عرشها كي تنغمس في حمام « النحن» حيث علاقات المساواة والانفتاح والدعم المتبادل.

تتميز اللغة بخصوصية تتجلى في كونها محمول وحامل في الآن نفسه؛ فهي منتوج ثقافي من جهة، ولكنها من جهة ثانية تنتج الثقافة. فاللغة بالمعنى الثاني تصنع الهوية وتشكلها. فالأطفال يتعلمون، من خلال اللغة التي يكتسبونها من محيطهم، كيفية النظر إلى الأشياء والوجود، والعلاقات بين أفراد المجتمع وكيفية التصنيف، ولذلك نلاحظ مثلا أن اللغات تختلف في تحديد الألوان. فالعلاقة بين اللغة والمجتمع علاقة جدلية؛ فالطفل، في تصور بنفنست، يولد ويتطور في مجتمع بشري ويتعلم من محيطه الأسري كيفية استعمال اللغـــة. كما يتعلم أسماء المسميات، ويكتشف من خلال هذا التعلم كيف يتدبر الأسماء، وهذا يوّلد لديه الوعي بالوسط الاجتماعي الذي يترعرع فيه.[29]

إن اختلاف اللغات هو في حد ذاته اختلاف في طرق التفكير؛ حيث إن الثقافة

اللغوية السائدة في كل أمة هي التي تحدد نمط التفكير. إن اللغة تتحكم فينا أكثر مما نتحكم فيها والانسان يتشكل من حيث هو ذات في اللغة وباللغة.[30]

إذا اختلت الموازين لا يمكننا بناء الحضارة، ولا يمكن التعايش مع الآخر، وإذا لم تقرأ الأمة العربية تاريخها لفهم حاضرها واستشراف مستقبلها فلا يمكن أن تستمر في الوجود. فالمنطق الذي كان العربي يميز من خلاله بين الذكر والأنثى أصبح متجاوزا؛ فمنطق القوة مثلا لا يقاس بالمفاهيم التقليدية، فباستطاعة امرأة متمكنة من فنون الحرب ومن استعمال الدبابة أن تهلك بلدا بأسره بالضغط على زر فقط.

إن اللغة قادرة أن تعرفنا بهوية أهلها أي» أن العلامة اللغوية تجسد العلاقات الاجتماعية لمستعمليها. وضمن هذا المفهوم، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة في اللغة ذاتها.»[31]

و اللغة العربية التي تحتاجها الأمة العربيةيجب أن تستفيد من التحول الذي تعيشه الدول العربية على المستوى السياسي وأخص بالذكر الدول المغاربية. فمن غير المعقول مثلا أن نجد في دساتير هذه البلدان أن المواطنين متساوون في الحقوق على اختلافها ولا نجد تغيرا يوازي ذلك على المستوى اللغوي. ومثال ذلك مسألة الجندر السالف ذكرها؛ فلابد أن نربي أبناءنا ، باعتماد لغة(اللغة الرسمية) لا تُشعر الأبناء بالتمايز على المستوى القيمي و الاعتباري (الاختلاف الفيزيولوجي مسألة طبيعية).

ويتطلب الأمر العمل على إزالة المفردات اللغوية التي تبني تفكيرا قيميا يعلي من قيمة الذكر على حساب الأنثى في المقررات الدراسية ومنذ المراحل الأولى من تمدرس الأطفال. و ينبغي التفكير في تأليف قواميس جديدة للغة العربية في الاتجاه نفسه. كما يحتاج أبناؤنا أن نعرفهم بالقيمة الحقيقية للغة العربية في أوطانهم من خلال الممارسة الواقعية. لأننا نعيش تناقضا بين الخطاب الذي ندعي من خلاله أننا ندافع عن اللغة العربية في حين أننا نقضي أهم حوائجنا بلغات أجنبية: الشيك البنكي ، طلب العمل ، التجارة، التعليم التقني...

هناك مسألة أخرى أكثر خطورة مما سبق تهدد بشكل واضح اللغة العربية وهي مسألة التعدد اللغوي.

أما إذا تحدثنا عن لغة الهوية في علاقتها بالاقتصاد فلابد أن نفكر كما يفعل الغرب بمنطق من تكلم لغتي استهلك سلعتي، لماذا لا يتم الاستثمار في اللغة العربية كي تكن قاطرة للنمو الاقتصادي والاجتماعي للدول العربية؟

خاتمـــــة:

اللغة العربية هي اللغة الأولى بالنسبة للعرب والمسلمين. إنها وعاء الفكر والثقافة والحضارة، و هي النافذة التي يمكن من خلالها أن ندرس الماضي، ونفهم الحاضر، ونستشرف المستقبل. فنحن في حاجة إلى اللغة لتفسير الطقوس، ومعرفة الخبايا الدلالية للغات الأخرى وفهمها.

إن حاجتنا إلى اللغة مستمرة. فنحن لا نستطيع أن نتصور العالم في كل تجلياته إلا في حدود اللغة، فلا شيء واضح قبل ظهور اللغة التي هي بمثابة المصفاة التي من خلالها نحكم ونصنف ونعبر ونقمع... وهذا ما جعل اللغة تتموقع في موقع خاص في علاقتها بأنساق(أنظمة) الدلالة والتواصل الأخرى، فهي مؤول كل الأنساق الأخرى؛ فنحن لا نستطيع أن نفهم أي نسق إلا من خلال اللغة لأن ذاكرة الإنسان هي ذاكرة الكون، فلا شيء واضح قبل ظهور اللغة.

إن العالم يتسلل إلى اللغة باعتباره سلسلة من المفاهيم والصور، والمفاهيم هي التي تمكننا من تنظيم العالم من خلال التقطيع والمفصلة: أسود وأبيض، ذكر وأنثى، أعلى وأسفل....

إذا كانت الظاهرة اللغوية بتلك الصورة والأهمية السالف ذكرها، فإن معرفة اللغة وتحصينها يعدان الركيزة الأساس لصياغة هوية الأمة وتحصينها في كل تجلياتها: الدينية والاجتماعية والثقافية والإثنية والقومية.

لقد كان منطلقنا من جدلية العلاقة بين اللغة والهوية؛ فاللغة تتأثر بالظروف التي أنتجتها، ومعرفة هذه الظروف سيساعدنا على فهم الخلفيات التاريخية لهوية لغة ما كالعربية، موضوع اهتمامنا، مثلا. واللغة هي الأساس الصلب الذي تقوم عليه قصة الأمة يقول جوستاف ليون: « إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح سجنها ما احتفظت بلغتها.»

الهوامـــــش:

(1) حسن بدوح، جامعة الحسن الأول، مختبر البحث في اللغة والأدب والبيئة، 2600 سطات، المغرب.

Hassan Bdouh, Univ hassan 1 , Laboratoire de recherche en langue et littérature et l'environnement, 2600 SETTAT, MAROC.

(2) سعيد بنكراد(2003): السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها. مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء. منشورات الزمن. ص. ص: 42-41.

(3) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني: ضوابط المعرفة، وأصول الاستدلال والمناظرة. ط. 7 ، السنة: 2003، دار القلم ، دمشق. ص: 337.

(4) عبد المنعم الحنفي: المعجم الفلسفـي. ط. 1. السنة: 1992. دار ابن زيدون، بيروت، لبنان. ص: 311.

(5) أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. ط2، دار الهدى للطباعة والنشر. ج 1 ، ص: 33

(6) محمد سبيلا، وعبد السلام عبد العالي: اللغة. دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، عدد:5. دار توبقال للنشر. ص: 16.

(7) عبد المنعم الحنفي: المعجـم الفلسفي. ط. 1. السنة: 1992. دار ابن زيدون، بيروت، لبنان. ص: 160.

(8) المرجع نفسه. ص: 238.

(9) جلال الدين السيوطـي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق: أحمد جاد المولى والمجموعة. دار الفكـر بيروت. ج 1، ص: 36.

(10) زليخة أبو ريشة: اللغة والجنـدر: مقاربة معجمية.مجلة اللغات واللسانيات. العدد 9. السنة: 2002. مطبعة فضالة، المحمدية. ص: 3.

(11) المرجع نفسه: ص: 4.

(12) الطاهر لبيب: سوسيولوجيـا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجا. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الطليعة. ص: 14.15.

(13) محمد سبيلا، وعبـد السلام عبد العالي: اللغة. دفاتر فلسفية، نصوص مختارة، عدد:5. دار توبقال للنشر. ص: 84/85.

(14) المرجع نفسـه. ص: 91.

(15) الجندر مفهوم حديث، يقصد بـه البحث في قضايا الأنوثة والذكورة والتأنيث والتذكير في اللغة من منظور ثقافي.

(16) المرجع نفسـه: ص: 8.

(17) جون جوزيف: االغة والهوية. ترجمـة: عبد النور خراقي. مجلة عالم المعرفة. العدد:342. السنة: 2007. ص: 85.

(18) محمد محيي الدين بن عبد الحميـــــد: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. دار الطلائع. السنة 2004. ج 4. ص: 66.

(19) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: المذكر والمؤنـــــث. تحقيق : رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي. وزارة الثقافة. القاهرة. السنة: 1970. ص: 108.

(20) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويـــــه: الكتاب. تحقيق : عبد السلام محمد هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. 1975م. ج 3. ص: 561

(21) الطاهر لبيب: سوسيولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجـــــا. ترجمة: مصطفى المسناوي. دار الطليعة. ص: 15.

(22) زليخة أبو ريشة: اللغة والجندر: مقاربة معجمية.ص. ص: 12-10.

(23) جون جوزيـف: االغة والهويـــة. ترجمة: عبد النور خراقي. مجلة عالم المعرفة. العدد:342. السنــة: 2007. ص:94.

(24) المرجع نفســه. ص: 35.

(25) المرجع نفسه. ص: 297.

(26) بيير بورديو: الرمز والسلطة. ترجمة عبـــد السلام بنعبد العالي. ط1 ، السنة: 1990، دار توبقال للنشر. ص: 13.

(27) ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام. ج 1. ص: 32. ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام. ج 1. ص: 32.

(28) عبد الرحمان بن محمد بن خلون: مقدمـــــــة ابن خلدون. تحقيق: عبد الله بن محمد الدرويش. السنة: 2004. المكتبة العصرية. ص: 379.380

(29) E. Benvenist : Problemes de Linguistique Générale. Gallimard 1966 P : 30.

(30) IBID :P : 259 .

(31) جون جوزيف: االغة والهوية. ص: 80.